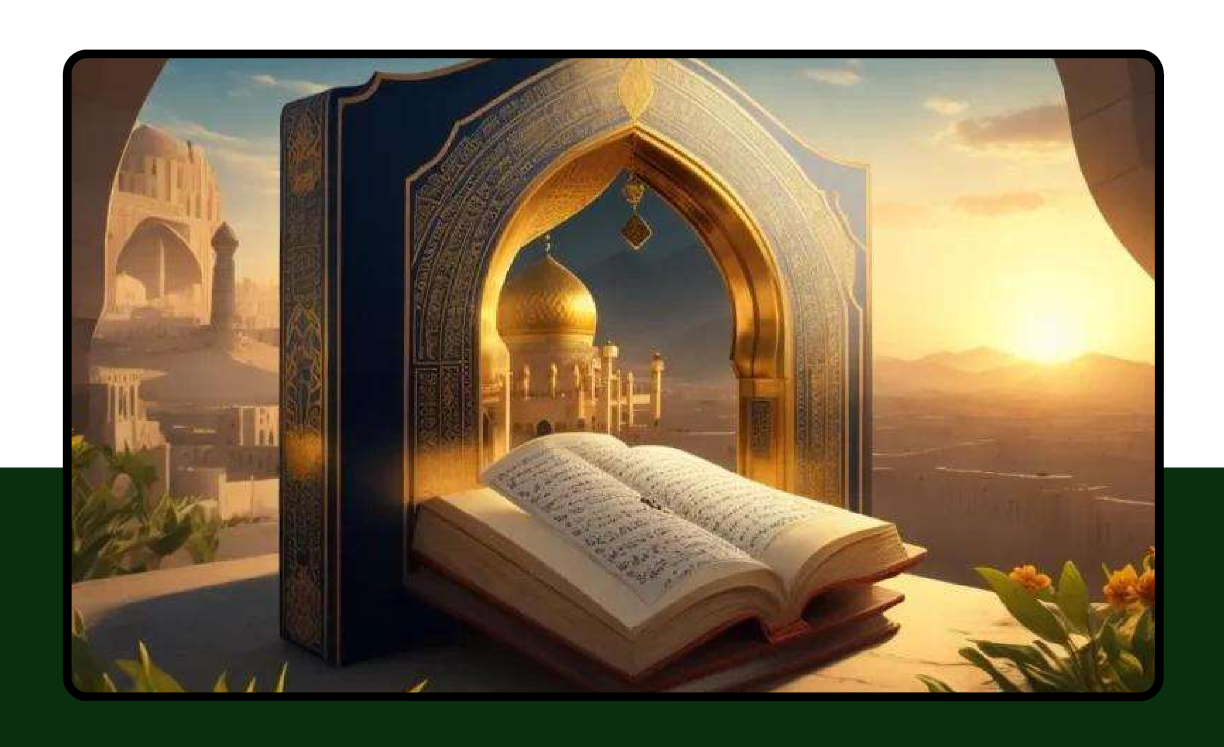
الإيمانُ أوّلًا؟
أَمِ القرآنُ؟



عمر السنوي

عمر السنوي الخالدي

الإيمانُ أوّلاً
أَمِ القرآن؟

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله تعالى، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلّ له، ومَن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم تسليمًا.

أمّا بعد:

فقد يستغربُ القارئ عنوانَ البحث، فيقول: إنّنا نتعلّم الإيمان (العقيدة) مِن القُرآن؛ فهل يستقيم أن نضع هذا العنوان ويكون محلَّ نقاش وبحث؟

وللجواب عن ذلك أقول: إنّ المقصودَ بتَعلُّمِ القرآنِ في هذا السياق، أمرَان اثنان:

الأول: هو العناية بحفظه، وإتقان تلاوته وتجويده، وضبطه.

والثاني: هو معرفة تفاصيل الأحكام التي يزوِّدُنا بها القرآنُ.

فإذا بانَ هذا القَصْد وعُرِف: يأتي السؤال عن **أيّهما أَولَى بالبَدء بتعلُّمه؟**

إنّ المطَّلِع على سيرةِ رسولِ اللهِ -صلّى الله عليه وسلّم- وصحَابَتِهِ -رضيَ اللهُ عَنهم- يجدُ أنّه كان يُعلِّمُهم أصولَ الإيمان (العقيدة) من خلال أحواله

وأفعاله وأقواله، فلَربّما أرشدَهم إلى الحقيقة عن طريق تساؤلاتٍ وأمثلةٍ ليست من نصوص القرآن، لكنها نابعة من تعاليمه وهَدْيِه؛ **وبهذا يكونون قد تعلُّموا الإيمان قبل القرآن، ثُمّ تعلُّموا القرآن ليُعطِيَهم العلْمَ المفصَّل**، فيزدادوا إيمانًا.

ولكن هل كان هذا منهجًا مطَّرِدًا في التعليم؟

جاء من حديث جُندب بن عبد الله البجَلي -رضي الله عنه-، أنه قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم **وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ**، فَتَعَلَّمْنَا **الْإِيمَانَ** قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ **الْقُرْآنَ**، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا»[(١)].

وهذا الحديث يستدلّ به بعض أهل العلم على أنّ المشروع في **منهج تعليم الأطفال** -فضلًا عن الكبار- أنْ يُبدَأ معهم بتعليم الإيمان والتوحيد (أي: العقيدة)، ثم بعدَ ذلك يُعلّمون القرآن (حفظًا وتجويدًا وضبطًا)[(٢)].

ولكنّ استدلالَهم هذا يَحتاج إلى وقفة لمعرفةِ معنى (الفتَى والفَتِيّ) أو

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/٢٢١)، وابن ماجه في سننه (٦١)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٦٧٨)، وغيرهم، وإسناده صحيح.

(٢) منهم: الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه "تعليم الصبيان التوحيد"، الذي قال في مقدّمته: (فهذه رسالة نافعة فيما يجب على الإنسان أن يعلِّم الصبيان **قبل** تعلُّمهم القرآن)! وهذا خِلاف ما سيأتي ذِكره من النصوص النبويّة وهدي السلَف.

(الفَتاة والفَتِيَّة) في اللّغة العربيّة.

جاء في معجم (العين): «الفَتِيُّ والفَتِيَّة: الشَّابُّ والشابّةُ»[٣].

وقال إبراهيم الحربيّ (ت ٢٨٥هـ): «الفتى: الشابُّ مِن النّاس والبَهائم»[٤].

وذَكرَ الأزهريّ (ت ٣٧٠هـ) نقلًا عن ابن السِّكِّيت (ت ٢٤٤هـ) قوله: «يُقَال: تَفَتَّتْ الجَارِيَة، إذا راهَقَت فخُدِّرَتْ ومُنعتْ من اللَّعب مَعَ الصّبيان»[٥].

ثم نقلَ عن ابن قُتيبة الدِّيْنَوَريّ (ت ٢٧٢هـ) أنه قال: «لَيْسَ الْفَتى بِمَعْنى الشابِّ والحَدَثِ، إنَّما هُوَ بِمَعْنى الكامِل الجزْل من الرِّجال»[٦].

واحتجّ بقول الشاعر:

إنّ الْفَتى حَمَّالُ كلِّ مُلِمَّةٍ ... ليْسَ الْفَتى بِمُنعَّم الشُّبّانِ

والحقيقةُ أنّ ما احتجّ به ابن قتيبة لا ينفي المعنى المذكور قبل ذلك، بل يؤكّده. والمقصود من قول الشاعر كالمقصود من قول القائل: (ليس الرجل بمعنى الذكَر البالغ، وإنما الرجل الذي يحمل صفة كذا وكذا...) ويعدِّد صفات الرجال

(٣) العين، للفراهيدي (١٣٧/٨).

(٤) غريب الحديث، للحربي (٩٤٤/٣).

(٥) تهذيب اللغة، للأزهري (٢٣٣/١٤).

(٦) المصدر السابق.

للتنبيه إلى ما يجب أن يتحلّى به الرجل من الصفات؛ فلذلك كان قول الشاعر هنا: (ليْس الْفَتى بِمُنعَّم الشُّبّانِ) هو تأكيدٌ على أن العرب يستعملونه بمعنى الشاب، ومع ذلك أراد التنبيه إلى أن الفتَى الحقَّ هو الذي يحمِل صفاتٍ يجب أنْ تتوفّر لمن في سنّه وحاله.

وقال الجوهريّ (ت ٣٩٣هـ): «الفَتى: الشابُّ. والفتاةُ: الشابَّة. وقد فَتِيَ يَفْتى فَتًى، فهو فَتِيُّ السِّنّ بَيِّنُ الفَتاء. وقدْ وُلِدَ لَه فِي فَتاءِ سِنِّه أولادٌ»(٧).

إذنْ، فمُحَصَّل أقوال أهل اللّغة أن **الفتى هو الذي بلغ أشدّه، والذي هو في مقتبل الشباب، بحيث يكون قادرًا على الزواج والإنجاب.**

وعليه يكون معنى (الفتى) خارجًا عن المعنى الاصطلاحي للطفولة، فالطفل هو الإنسان ما دون سِنّ البلوغ، والفتى يُطلَق على مَن هو في مرحلة المراهقة، والتي تمتدّ منذ بلوغِ الإنسان الحلُم إلى سنّ الحادية والعشرين تقريبًا. ومن المسلَّم به أن الإنسان في هذه المرحلة يكون قادرًا على العقْل والفهْم والإدراك، وهذا شَرطٌ لازمٌ ليكون الإنسان مؤهَّلًا للإيمان.

ولكن قد يَستشكل البعضُ وُرود الحديث بلفظ آخَر: «**ونحن غِلمان**

(٧) الصحاح، للجوهري (٦/٢٤٥١).

حَزاورة»[٨]، والغلام يُطلَق على الإنسان منذ الولادة إلى أوّل سنّ الشباب، وأصلُه مِن غَلِمَ إذا طَرّ شاربُه، أي ظهرت عليه علامة البلوغ والرجولة[٩].

ثم إنه في الرواية قيَّده بقوله «حزاورة» يعني أنهم بلَغوا أشدّهم، فلم يعودوا أطفالًا؛ فالحَزْوَر لغةً: هو الغلامُ إذا صار يافعًا[١٠]، أو: هو البالِغ القَوِيّ[١١].

وبِناءً على البيان السابق فإنّه لا يوجد تناقض في المعنى بين ألفاظ هذا الحديث.

هل للأطفال خصوصية في منهج التعليم؟

بَعدَما سبقَ من تأصيل، لا بدَّ من لَفْت النظر إلى قضية الخصوصية التي يتمتّع بها الأطفال في سِنِي أعمارهم الأولى، والتي تمتد إلى عمر العاشرة أو أكثر، فهذه المرحلة لا يصلح معها سوى التلقين والتحفيظ والتخزين، بخلاف ما عليه البالغ الراشد الشاب؛ ولذا كان خير ما مُلِئَتْ به ذاكرة الأطفال: آياتُ القرآن الكريم؛ فكتاب الله تعالى أولى الأشياء بالحفظ، ويَعقِب ذلك شيء من

---

(٨) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٥٢٩٢).

(٩) يُنظَر: تهذيب اللغة، للأزهري (٨/١٣٦).

(١٠) يُنظَر: جمهرة اللغة، لابن دريد (٢/١١٨٨).

(١١) يُنظَر: تهذيب اللغة، للأزهري (٤/٢٠٧)، نقلَه عن ابن السكّيت.

الأحاديث النبوية وسيرة الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- وأصحابه الكرام - رضي الله عنهم-، ومعها أيضًا نصوصُ العرَب الأقحاح مِن الشِّعْر والحِكْمة، وهي المُعِينةُ فيما بعدُ على فَهْم القرآن وتعلُّم الإيمان، ولذلك يُروَى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال: «رَوُّوا أبناءَكم ما يجمُل من الشِّعر»[١٢].

ولا يُخْلِ المربّي منهجَ تلقينِ الأطفالِ مِن الأسئلة والأجوبة الميسَّرة في مَسائل السلوك والعقيدة والفقه، بألفاظٍ مختصَرة جدًّا، بحيث تكوِّن لهم قوالب سهلة الحفظ، فتصبح فيما بعدُ قواعدَ يتمكّنون من استحضارها في عمر الإدراك والفهم وما يَعقِب ذلك من يقينٍ وإيمان.

وممّا يَحسُن التنبيه إليه في هذا المقام: أنّ التلقين لا يكون باللّسان فحسب، بل يكون بالعمل أيضًا؛ فينتبّه المعلّم والمربّي إلى حُسن سَمْتِه، فالأطفال يتلقَّون عنه السمْت كما يتلقّون عنه القول، فهو قدوتهم في سائر الأمور؛ فهناك خِصال داخلة في باب الأخلاق والسلوك لا يكون الإيمان فيما بعدُ إلّا إذا توفّرت لدى صاحبها، وعلى رأسها: **الإخلاص والصدق والصبر**.

ومما يشهد لخصوصية عمر الطفل في التعليم، ما جاء في خبَر عَمرو بن

---

(١٢) الكامل في اللغة والأدب، للمبرد (٢١١/١).

سلمة -رضي الله عنهما-، ويحسن إيراد خبره هنا كاملًا؛ قال: «كنا بماءٍ مَمَرِّ الناسِ، وكان يمرُّ بنا الركبانُ فنسألهم: ما للناسِ، ما للناسِ؟ ما هذا الرجلُ؟ فيقولون: يزعم أنّ اللهَ أرسلَه، أوحى إليه. أو أوحى اللهُ بكذا، **فكنتُ أحفظُ ذلك الكلامَ، وكأنما يقرُّ في صدري**، وكانت العربُ تَلوَّمُ بإسلامهم الفتحَ، فيقولون: اتركوه وقومَه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيٌّ صادقٌ، فلما كانت وقعةُ أهلِ الفتحِ، بادرَ كلُّ قومٍ بإسلامهم، وبدَرَ أبي قومي بإسلامِهم، فلمّا قدِم قال: جئتُكم واللهِ من عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقال: **(صلّوا صلاةَ كذا في حين كذا، وصلُّوا كذا في حين كذا، فإذا حضرَت الصلاةُ فلْيؤذِّن أحدُكم، وليؤمكم أكثرُكم قرآنًا)**؛ فنَظروا فلم يكن أحد أكثرَ قرآنًا مني، **لِما كنت أتلقى من الركبان**، فقدَّموني بين أيديهم، **وأنا ابن ستٍّ أو سبعِ سنين**، وكانت علَيّ بُردة، كنت إذا سجدتُ تقلَّصَت عني، فقالت امرأةٌ من الحيِّ: ألا تغطُّون عنا اسْت **قارئِكم**؟ فاشتروا فقطعوا لي قميصًا، فما فرحتُ بشيءٍ فرحي بذلك القميصِ»(١٣).

وممّا يؤكِّد ذلك: أنّ منهَج العلماء مِن السَّلف الصالح ومَن بعَدهم -رحمهم الله تعالى- هو حفظ القرآن في سِنّ الطفولة، كما ورَد عن محمد بن

---

(١٣) رواه البخاري (٤٣٠٢).

إدريس الشافعيّ (ت ٢٠٤هـ) أنّه حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين[١٤]، وكذلك ما ورّد عن محمد بن داوود الظاهريّ (ت ٢٩٧هـ)[١٥]، وما ورَد عن محمد بن جرير الطبريّ (ت ٣١٠هـ)[١٦]، وقد ورَد عن كثير من العلماء أنهم حفظوا القرآن وهم صبيان لم يتجاوزوا مرحلة الطفولة[١٧].

بل وردَ عن أحمدَ بن حنبل (ت ٢٤١هـ) أنّ سائلًا سأله عن ابنه بماذا يبدأ في تعليمه؟ فأرشدَه إلى البدء بالقرآن[١٨].

بل ألَّف بعضُ أهل العلم رسائلَ في منهج التربية، من أمثال محمد بن سحنون (ت ٢٥٦هـ) في رسالته «آداب المعلِّمين»، وأبي الحسن المعافريّ القابسيّ (ت ٤٠٢هـ) في رسالته «أحوال المعلِّمين والمتعلِّمين»، وقد ذهَبا إلى أنّ الغاية الدينية هي التي تحدّد العلوم التي يَدْرسُها **الصبيان، وأوّل** هذه العلوم: **حفظ القرآن وقراءته وكتابته ونطقه وتجويده**[١٩].

---

(١٤) يُنظَر: طبقات الشافعية، لابن كثير (٢١/١).

(١٥) يُنظَر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١١٠/١٣).

(١٦) يُنظَر: معجم الأدباء، لياقوت الحموي (٢٤٤٦/٦).

(١٧) يُنظَر: العلْم، لابن عثيمين (ص٣٥).

(١٨) يُنظَر: الآداب الشرعية، لابن مفلح (٣٣/٢).

(١٩) يُنظَر: التربية الإسلامية، لمحمد منير مرسي (ص٣١٥).

كما أنّ خصوصية مرحلة الطفولة قد نبَّهَ إليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تنبيهًا صريحًا، حيث قال: «**علِّموا أولادَكُمُ الصَّلاةَ إذا بلَغُوا سَبعًا، واضْرِبوهم علَيها إذا بلَغُوا عَشْرًا**»[٢٠].

وقد ورد في حديث آخر بلفظ: «**واضربوهم عليها لثلاثِ عشرة**»، وآخر بلفظ: «**واضْرِبوهم عليها أبناءَ اثنتَيْ عشرةَ سنةً**» ولكنّ أسانيدهما لا ترقى إلى الصحة كالأوّل، إلا أنها صحيحة المعنى ولا تَناقُض فيها مع الأوّل، لأنّ هذه الأعمار تتوافق مع مدّة عمر الطفولة، وبداية عمر المُراهَقة.

والمعنى المقصود بتعليم الأولاد الصلاة ما أُشيرَ إليه سابقًا: أنّ الأولاد يَتلقّون الأقوال والأعمال، ويقتدون بالمربّين، وأنّ الواجب في هذه الفترة أن لا يزيد المربّي في تعليمهم عن: **الحث، والترغيب، والتعويد، والتلقين**، والاستمرار بذلك طيلة هذه السنوات، مع تنويع الوسائل والطرائق في التربية والتعليم[٢١].

---

(٢٠) رواه البزار بهذا اللفظ عن أبي هريرة (٩٨٢٣)، وهو عند أحمد عن جَدّ عمرو بن شعيب (٣٦/١١)، وأسانيدهما صحيحة.

(٢١) وهنا فائدة: وهي أنّ ضرْب الأطفال في الشريعة الإسلامية ممنوع غير مشروع، إلا في سنّ متقدّمة وفي حالات تقتضيه ولا تقتضي غيره، ولغاياتٍ تأديبية بحتة، لا بدافع الغضب ومشاعر العصبية وضِيق الخُلق، ولذا يُلاحَظ أنّه ذُكِر في هذا الحديث بعد سنوات من تعليم الطفل قضية واحدة وهي الصلاة، والتي تتكرر في اليوم خمس مرات في ثلاث سنوات أو أربع أو خمس، وبطُرق =

هل ثبتت أحاديث تدلّ على تعليم الأطفال الإيمان أولاً؟

يَستشهد بعض القائلين بأوّليّة تعليم الأطفال الإيمان، بأحاديث يرَون أنّها تدلّ على ذلك، منها:

١. حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها-، قالت: قال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: «مَن ربّى صغيرًا حتّى يقول "لا إلٰه إلا الله" لم يحاسبه الله»[٢٢].

٢. وحديث علي -رضي الله تعالى عنه-، قال: قال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: «أدّبوا (أو أدمنوا) أولادكم على ثلاث خصال: حبّ نبيّكم، وحبّ أهل بيته، وقراءة القرآن»[٢٣].

٣. وحديث عبد الله بن عَمرو -رضي الله عنهما-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إذا أفصحَ أولادُكم فعلّموهم لا إلٰه إلا الله ثُمّ لا تُبالوا متى ماتوا»[٢٤].

= متنوعة وأساليب متعدّدة، ثم إذا بلغ رشده ولم يستجب بعد كل هذا التعليم والتأديب، لمْ يبقَ من علاجٍ سوى الضرب، ويكون بشَرْطِه، فلا تقبيح فيه، ولا تبريح، ليكون أثره إيجابيًا لا سلبيًا.

(٢٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (١٣٠/٥).

(٢٣) ذكره التقيّ الهنديّ في كنز العمّال (٢٧٨/٨). وقال: (أخرجه أبو نصر عبد الكريم الشيرازي في فوائده، والديلمي في الفردوس).

(٢٤) رواه ابن السنّي في عمل اليوم واللّيلة (٣٧٣/١).

٤. وحديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «افتحوا على صبيانكم أوّل كلمة لا إله إلا الله، ولقّنوهم عند الموت لا إله إلا الله»[٢٥].

وهذه الأحاديث منها ما لا يحمل الدلالة التي أرادوها -وهما الحديثان الأوّل والثاني-، ومنها ما يحمل تلك الدلالة -وهما الحديثان الثالث والرابع، إذ فيهما إشارة إلى كَون تعليم التوحيد يكون أوّلًا-.

فأمّا الحديث الأول فإنْ صحّ فمفهومه أن يربي الإنسان ولدَه حتى ينشأ مسلِمًا موحِّدًا لله. وأما الثاني فلا يعني تعليم الأطفال العقيدة، وإنما يفيد غرس المشاعر الإسلامية فيهم، وأهمّها حبّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأهل بيته الكرام.

على أنّ هذه الأحاديث -جميعها- **لا تصحّ** من حيث الإسناد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلّم-، **فأمّا الأوّل** فهو مكذوب، أوردَه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٧٨/٢)، وخرّجه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (٢٣١/١)، ثم قال بعدَ أنْ ذَكَرَ كلام العلماء فيه: «فقد اتفقت كلمات هؤلاء الحفّاظ ابن حبان وابن عدي والذهبي والعسقلاني على أنّ هذا

---

(٢٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٩٨/٦).

الحديث باطل، و جعلوا بطلانه دليلًا على اتّهام كلّ مَن رواه من الضعفاء والمجهولين، بعكس ما صنَع السيوطي مِن محاولته تقوية الحديث بوروده من الطريق الأخرى التي فيها أشعث الذي أشار الذهبي إلى اتهامه بهذا الحديث؛ فتأمّل الفرق بين مَن ينقد ومَن يجمع!».

وأمّا **الحديث الثاني** فضعيفٌ جدًّا، في إسناده مجهولٌ وثلاثةُ مجروحين أحدهم يروي الأباطيل[٢٦].

وأمّا **الحديث الثالث** فلا يصحّ أيضًا، ففي إسناده راوٍ ضعيف[٢٧].

وأمّا **الحديث الرابع** فهو حديث باطل كما حكَمَ به الذهبي وابن حجر، وأقرّهما الألباني[٢٨].

وبناءً على ما سبق فهذه الأحاديث لا حجّة فيها، ولا يُبنى عليها عمَل.

كيف يتقدّم جانب الإيمان في تعليم الكبار؟ ولماذا؟

إنّ خيرَ منهجٍ يتّبعه الإنسانُ الراشد البالغ في طلَبه العلم هو المنهج المشار

---

(٢٦) يُنظَر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، للألباني (١٨٢/٥).

(٢٧) يُنظَر: المرجع السابق (٣٦٠/٥).

(٢٨) يُنظَر: المرجع السابق (٣٤٠/١٣-٣٤١).

إليه في حديث جندب بن عبد الله البجليّ المذكور في أوّل البحث، حيث يهتمّ بجوانب الفَهم الذي يؤدِّي إلى الإيمان.

ولهذا حين أورَدَ ابنُ مفلحٍ (ت ٧٦٣هـ) كلامَ أحمدَ بنِ حَنبلٍ في إرشاده السائلَ إلى البدء بتعليم ابنه القرآن، ثمّ ذكَر كلامًا لعبد الله بنِ المبارك (ت ١٨١هـ) يخالِف ذلك التوجيه: علّق عليه بقوله:

«وَكَلَامُ أَحْمَدَ -واللهُ أَعْلَمُ- إِنَّمَا هُوَ فِي **الصَّغِيرِ** كَمَا هُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ، وَالَّذِي سَأَلَ ابْنَ الْمُبَارَكِ كَانَ **رَجُلًا**؛ فَلَا تَعَارُضَ. وَأَمَّا الصَّغِيرُ فَيُقَدِّمُ حِفْظَ الْقُرْآنِ لِمَا ذَكَرَهُ أَحْمَدُ مِنْ الْمَعْنَى، وَلِأَنَّهُ عِبَادَةٌ يُمْكِنُ إدْرَاكُهَا وَالْفَرَاغُ مِنْهَا فِي الصِّغَرِ غَالِبًا. وَالْعِلْمُ عِبَادَةُ الْعُمُرِ لَا يُفْرَغُ مِنْهُ؛ فَيُجْمَعُ بَيْنَهُمَا حَسَبَ الْإِمْكَانِ، وَهَذَا وَاضِحٌ، وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ أَوْلَى لِمَسِيسِ الْحَاجَةِ إلَيْهِ لِصُعُوبَتِهِ وَقِلَّةِ مَنْ يَعْتَنِي بِهِ، بِخِلَافِ الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا يُقَصِّرُ فِي الْعِلْمِ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ طَلَبُهُ، وَلَا يُقَصِّرُ فِي حِفْظِ الْقُرْآنِ حَتَّى يَشْتَغِلَ بِحِفْظِهِ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ الِاشْتِغَالُ فِي الْعِلْمِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ فِي الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ»(٢٩).

وأَولى تلك العلوم بالنسبة للبالغ الراشد: هو علم العقيدة، ولذا جاء في الحديث قوله «**نتعلّم الإيمان**»، والمقصود بالإيمان: علم العقيدة والتوحيد، وهو

(٢٩) الآداب الشرعية (٢/٣٣).

الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرسل، والبعث، وما يتفرع عن ذلك من عقائد الإسلام؛ ولا يكون ذلك دون تفكُّر؛ **فالإِسْلامُ فِكْرَةٌ، والإِيمانُ يَقِينٌ، والإِحْسانُ عَمَلٌ**؛ وكُلَّما اِتَّسَعَت الفِكْرَةُ وَتَعَمَّقَتْ زَادَ اليَقِينُ وَثَبَتَ ورَسَخَ، وَكُلَّما زَادَ اليَقِينُ كانَ دافِعًا إِلى مَزِيدٍ مِن العَمَل، وَكُلَّما زَادَ العَمَلُ تَفَتَّحَت العُقول لِمَزِيدٍ مِن التَّفْكِيرِ، حتَّى تَعودَ الدائِرَةُ وتستمرّ، وهي التي تترتَّب عليها زِيادةُ الإِيمان أو نُقْصَانه، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: {**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**} [محمد:١٧]؛ فالهداية إلى الفكرة: (إسلام)، والزيادة في الهدى: (إيمان)، والتقوى: مِن أبرَز دلالات الـ(إحسان).

فلذلك قال جندب: «**ثمّ تعلَّمْنا القرآن فازدَدْنا به إيمانًا**»، وهذا مِصداق قَوْل اللهِ تَعَالَى: {**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**} [الأنفال: ٢]، ففيها إشارة إلى أنّ القراءة والحفظ سببٌ في زيادة الإيمان، لأنها توسّع مدارك الإنسان، وتزيده إعمالًا لفِكرِه فيما يتعلّمه، فتَنتُج عن ذلك المُدارَسةُ ويَنتُج عنه البحث عن الحقائق، ثم يَعقِبها الإيمان واليقين والاعتقاد الجازم بما توصَّل إليه من نتائج تِلك الدِّراسة، وهذا الإيمان الّذي بات يتمتّع به هو الّذي سيدفعه إلى العمل الصالح النافع له ولأمّته.

ومِن ذلك قوله تعالى: {**أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ**}

[هود: ١٧]، قال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): «قَوْلُهُ: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ} يَعْنِي هُدَى الْإِيمَانِ، {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ} أَيْ مِنْ اللَّهِ، يَعْنِي الْقُرْآنَ شَاهِدٌ مِنْ اللهِ يُوَافِقُ الْإِيمَانَ وَيَتْبَعُهُ، وَقَالَ: {يَتْلُوهُ} لِأَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْمَقْصُودُ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا يُرَادُ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْإِيمَانُ وَزِيَادَتُهُ»[٣٠].

وممّا يَشهد لحديثِ جُندب ويُجَلِّي مَعناه، ما وردَ عن عددٍ من الصحابة الّذين كانوا بعمر الشباب في زمن النبيّ -عليه الصلاة والسلام-:

مِن ذلك قول ابن عمر -رضي الله عنهما-: «لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنا وَأَحَدُنَا يُؤتَى الْإِيمَانُ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ -صلّى الله عليه وسلّم- فَنَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَآمِرَهَا وَزَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ نُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمُ الْيَوْمَ الْقُرْآنَ. ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، وَلَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، وَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقل»[٣١].

وقال أيضًا: «إِنَّا كُنَّا صُدُورَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ وَصَالِحِيهِمْ مَا يُقِيمُ إِلَّا سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ شِبْهَ ذَلِك، وَكَانَ

(٣٠) مجموع الفتاوى (١٥/١٧).

(٣١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٥٢٩٠)، والحاكم في المستدرَك (١٠١)، وصححه، ووافقه الذهبي.

الْقُرْآنُ ثَقِيلًا عَلَيْهِمْ وَرُزِقُوا عِلْمًا بِهِ وَعَمَلًا، وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَخِفُّ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ حَتَّى يَقْرَأَهُ الصَّبِيُّ وَالْعَجَمِيُّ لَا يَعْلَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا، أَوْ قَالَ لَا يُسَلِّمُونَ مِنْهُ الشَّيْءَ»[٣٢].

وجاء عن حذيفة -رضي الله عنه- أنّه قال: «**إِنَّا آمَنَّا وَلَمْ نَقْرَأْ الْقُرْآنَ، وَسَيَجِيءُ قَوْمٌ يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ وَلَا يُؤْمِنُونَ**»[٣٣].

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنّه قال: «**إنّا صعُب علَينا حِفظ ألفاظ القرآن، وسهُل علَينا العمَل به، وإنّ مَن بعدَنا يسهُل علَيهم حِفظ القرآن، ويصعُب علَيهم العمَل بِهِ**»[٣٤].

وقال أبو عبد الرحمن السُّلَميّ (ت ٧٤هـ): «حدَّثَنا مَن كان يُقرِئنا مِن أصحاب رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- **أنهم كانوا يقترئون من رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- عشر آيات، ولا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العمل والعلم**. قال: فعلمنا العمل والعلم»[٣٥].

---

(٣٢) رواه الطبري في تفسيره (٣٩/١).

(٣٣) أخرجه الهروي في كتابه ذم الكلام (١٤٥٧).

(٣٤) رواه الطبري في تفسيره (٤٠/١).

(٣٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٩٩٢٩).

ففي خبَر عبد الرحمن السُلَمِيّ دلالةٌ على الجمع بين الخيرَين، مع التركيز على تعلُّم الإيمان، وأنّه أَولى بالوقوف عنده والاهتمام به.

وأمّا قول رسول الله -صلى الله عليه وسلَم-: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[٣٦]؛ فيقول ابن تيميّة بأنّ المراد به: «تَعْلِيمُ حُرُوفِهِ وَمَعَانِيه جَمِيعًا، **بَلْ تَعَلُّمُ مَعَانِيه هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ** بِتَعْلِيمِ حُرُوفِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَزِيدُ الْإِيمَانَ، كَمَا قَالَ جُنْدَبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، وَغَيْرُهُمَا»[٣٧].

وهل يبلغ الإيمانُ كمالَه؟

نعم، يبلغ الإيمان كمالَه؛ فإنّ طالِبَ العلم إذا بدأ بتعلُّم الإيمان، ثم القرآن، ازدادَ إيمانًا -كما سلف تقرير ذلك عن الصحابة-، **وهذه الزيادة تستمرّ حتى تبلغ الكمال.**

وقد جاء في وصف رسولنا -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه «**كان خُلقه القرآن**»[٣٨]، وهو ما يُشير إلى أنّ **تعلُّم القرآن والتخلُّق به** يؤدّي إلى الكمال. ولذلك قال -عليه الصلاة والسلام-: «**أَكْمَلُ اَلْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا**

---

(٣٦) رواه البُخارِيّ (٥٠٢٧).

(٣٧) مجموع الفتاوى (٣٠٣/١٣).

(٣٨) رواه مسلم (١٧٧٣).

أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا»[٣٩]. وفي الحديث الآخر: «**إنّ مِن خِيارِكم أحسنَكم أخلاقًا**»[٤٠].

قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ (ت ١٣٠هـ): «الْإِيمَانُ يَبْدُو فِي الْقَلْبِ ضَعِيفًا ضَئِيلًا كَالْبَقْلَةِ؛ فَإِنْ صَاحِبُهُ تَعَاهَدَهُ فَسَقَاهُ **بِالْعُلُومِ النَّافِعَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ** وَأَمَاطَ عَنْهُ الدَّغَلَ وَمَا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَنْمُوَ أَوْ يَزْدَادَ وَيَصِيرَ لَهُ أَصْلٌ وَفُرُوعٌ وَثَمَرَةٌ، وَظَلَّ إلَى مَا لَا يَتَنَاهَى حَتَّى يَصِيرَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ. وَإِنْ صَاحِبُهُ أَهْمَلَهُ وَلَمْ يَتَعَاهَدْهُ جَاءَهُ عَنْزٌ فَنَتَفَتْهَا أَوْ صَبِيٌّ فَذَهَبَ بِهَا وَأَكْثَرَ عَلَيْهَا الدَّغَلَ فَأَضْعَفَهَا أَوْ أَهْلَكَهَا أَوْ أَيْبَسَهَا، كَذَلِكَ الْإِيمَانُ»[٤١].

ختامًا:

نخلُص من جميع ما سبق إلى أنّ تعلُّم الإيمان المُجمَل ورسوخه في النفس، قبل تعلُّم تجويد القرآن وحفظه وما فيه من علوم مفصَّلة: هو منهَجٌ نبويٌّ. **ولكن يُستثنَى الأطفال من هذا المنهج**، حيث تكون العناية في تعليمهم بالتلقين والتحفيظ، وأَوْلى ذلك بالعناية هو القرآن خاصّة، واللّغة عامّة. كما

---

(٣٩) حديث صحيح، رواه أحمد (٢/٤٧٢)، وأبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢).

(٤٠) أخرجه البخاري (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٣٢١).

(٤١) مجموع الفتاوى (٧/٢٢٥).

أنّ التلقين غير مقتصر على المَنطوق باللّسان، بل هو عامّ يشمل الأفعال والسمْت الحسن (الأخلاق).

وأما البالغ الراشد الشاب فإنّما يعتني بتعلُّم أصول الإيمان والتوحيد (أي العقيدة)، ثم يتعلَّم القرآن ليزداد إيمانًا، ويستمر في هذا التعلّم والتزوّد حتى يصبح القرآن خُلقًا له، كما كان حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يبلغ كمال الإيمان بهذا الخُلق.

فاللّٰهُمَّ ارزقنا صحّة الإيمان، وثبّتنا عليه، وزدنا منه، ووفّقنا لكماله.

وكتب

عُمَرُ السِّنَوِيّ

في الأوّل مِن رَمضان سَنة ١٤٤٠هـ

بمَدينة المَوصل حرسها الله وسائر أرض العراق

الفهرس